المليونير الفقير

حضر إلى منزلى خالى الحاج " محمد شرف الدين " وطلب منى السفر إلى القاهرة – تلك المدينة التى كانت حلما يراودنى منذ الصغر فأنا لم أشرف بزيارتها من قبل – وأعطانى ستين ألفا من الجنيهات هى ثمن عشرة قراريط من الأرض الزراعية اتفق على شرائها من " شريف المنشاوى " أحد وجهاء القرية , وأوصانى بألا أدفع الثمن إلا بعد توقيعه على حجة البيع.

ارتسمت صورة ذلك الرجل أمامى بعضلاته المفتولة وطوله الفارع وعرضه المنبسط وهيبته التى تلازمه فقد رأيته ذات مرة بالقرية منذ سنوات خلت .

ركبت العربة واحتضنت الحقيبة التى تحوى النقود ، فأنا طوال سنوات عمرى التى تعدت العقد الثانى بقليل لم أحمل مثل ذلك المبلغ بل ولم أره من قبل ، وانطلقت العربة تشق طريقها وكأنها تسابق الزمن ، جلست أختلس النظرات من نافذتها أشاهد ما لم ألفه فى قريتى القابعة وسط الزراعات فى هدوء ، وبعد قرابة الساعة ونصف الساعة توقفت العربة فقد وصلت محطتها الأخيرة ، وبالتحديد موقف " أحمد حلمى " .

غادرت العربة وترجلت فى أحد الشوارع وقد بهرتنى المبانى الشاهقة التى تشرئب لها الأعناق ، والشوارع المليئة بالسيارات والبشر على حد سواء .. وانتابنى الذهول ولكنى سرعان ما أفقت عندما اصطدم بى أحد المارة المسرعين وتعلقت بالحقيبة محكما

قبضتى عليها فكثيرا ما سمعت عن احتيال النصابون من أهل المدن على القرويين السذج أمثالى ، واستوقفت إحدى عربات الأجرة لتقلنى إلى مقر عمل ذلك الوجيه الأمثل .

توقفت العربة أمام بوابة حديدية ضخمة يجلس خلفها داخل حجرة صغيرة العديد من الرجال الذين يرتدون زيا موحدا ، عرفت من اليافتة المعلقة على الحجرة أنهم أفراد أمن ، اصطحبنى أحدهم إلى الداخل بمجرد أن تفوهت اسم ذلك الرجل إلى قاعة فسيحة مليئة بالمقاعد الفخمة وطلب منى الانتظار .. مر الوقت ثقيلا مملا قبل أن أسمع وقع أقدام تطأ الأرض فى خطوات رتيبة واثقة وأشار إلىّ أن أتبعه ، سرت خلفه فى صمت حتى اقتربنا من باب فخم يقف أمامه شابان قويان مدججان بالسلاح ففتحا وأشار أحدهما لى بالدخول .

خطوت عدة خطوات داخل قاعة فخمة تعج بالأثاث الفاخر ورأيت فى نهايتها مكتبا ضخما يجلس إليه رجل أيقنت على الفور انه هو مقصدى فلا يوجد داخل القاعة سواه .

اقتربت منه ، إنه يمتلك قامة طويلة وجسد نحيل بارز العظام .. إنه الرجل الذى رأيته بالقرية منذ سنوات ولكن الزمن قد ترك بصماته على جسده وخط خطوطه على جبينه .. وقف مادا يده مصافحا :

- أهلا يا ابنى .

- أهلا وسهلا يا سعادة الباشا .

وأشار إلى بالجلوس فجلست على استحياء ، ولفنى صمت رهيب لم أفق منه إلا على صوت شخص يضع مشروبا أمامى فى أدب جم وانصرف فى خفة ورشاقة .

أخذت أستجمع شجاعتى وأرتب بعض الكلمات التى سأبدأ بها حديثى ولكنها كانت تفر منى رغما عنى وأحسست بدوار وكأن الأرض تميد تحت قدمى ، وبعد عناء تنحنحت فى محاولة لتحسين نبرات صوتى واعتدلت فى جلستى قائلا :

- أنا أحمد ، ابن الحاج " حامد أبو إسماعيل " .. من البلد .. من طرف الحاج " محمد شرف الدين"

نظر إلى نظرة لا تنم عن شئ وهز رأسه قائلا :

- هانروح الفيللا دلوقتى عشان أديلك حجة البيع .

وسادت فترة أخرى من الصمت قطعها رجل أنيق يسير فى وقار ووضع أمامه ملفا به الكثير من الأوراق ، فأخذ يتفحصها ورقة ورقة دون أن ينطق وهو يكتب بعض الكلمات ويزيلها بتوقيعه إلى أن انتهى منها أخذها الرجل وانصرف فى هدوء فأشار إلى بيده :

- تفضل .

أسرعت بالوقوف ، وسار وأنا بجواره إلى أن وصلنا إلى عربة كانت فى انتظاره وضع نفسه داخلها فى المقعد الخلفى وأشار إلىّ السائق فجلست بجواره فى المقعد الأمامى ، وانطلق مسرعا .

توقفت العربة داخل فيلا أنيقة تحوطها حديقة خلابة ، صعدنا إلى الطابق الثانى ، واستقر بنا المقام فى غرفة متسعة تعج بالأثاث الفاخر والتحف النادرة ، وتركنى برهة ثم عاد بعد أن استبدل ملابسه الرسمية بجلباب فضفاض مزركش ، واسترخى فى أحد المقاعد فأسرعت إلى الحقيبة التى بيدى وأخرجت ما بها من نقود وقدمتها له فوضعها على ترابيزة مجاورة فى غير مبالاة وفتح خزينة حديدية داخل إحدى الجدران وأخرج منها حجة البيع ووقع عليها وأعطانى

إياها فدسستها داخل الحقيبة وأغلقتها بدقة وأنا أشعر أن عبئا ثقيلا قد أزيح عن كاهلى .

أدرك الرجل ما ينتابنى من رهبة فأشار لى بيده إلى صورة أنيقة معلقة على الحائط وأخبرنى أنها ابنته الوحيدة .. " علا " .. التى ستزف قريبا وأنه أحضر ما يلزمها من ملابس وعطور من فرنسا ، وأدوات المطبخ ومستلزمات المنزل العصرى من إيطاليا ، أما الأجهزة الكهربائية فقد استوردها خصيصا من اليابان ، وأنه دفع مليون جنيه ثمنا لشقة على النيل لتتخذها عشا للزوجية ، وأن كبرى معارض السيارات تتنافس فى تقديم أحدث ما لديها من ماركات السيارات العالمية هدية زواجها .. ثم انتقل بالحديث إلى العريس المرتقب ابن الوزير المعروف ذائع الصيت صاحب الثروة الطائلة التى لا حصر لها فى كل بلدان العالم الذى بإشارة من إصبعه يجعل الحر عبدا والحبيس طليقا

سمعت ذلك وأنا مشدوه دون أن أنطق بكلمة واحدة بل اكتفيت بابتسامة وضعتها على ثغرى مضطراً مبديا سعادتى بما أسمعه وإن كنت بداخلى أشعر بالضآلة وضيق ذات اليد وتمنيت لو يستضيفنى ذلك الرجل عدة أيام أقضيها فى كنفه وأستمتع بذلك الثراء الفاحش .

دخل رجل يرتدى جلبابا ذو خطوط طولية رفيعة ويضع طاقية بيضاء طويلة فوق رأسه ويربط أسفل بطنه المترهلة مريلة بيضاء ، إنه طباخ أو لعله كبير الطباخين ودعانا للغذاء وأدار ظهره وانصرف ، نهض الوجيه الأمثل وتوجه إلى غرفة الطعام وتبعته ، وجلست أمام ترابيزة كبيرة مليئة بما لذ وطاب من أصناف الطعام ، وبادرنى الرجل بقوله :

- تفضل .. ، اتغدى ، عبد الباسط هيحضر لى غدائى حالا .
دخل عبد الباسط بعد برهة يسيرة يدفع أمامه عربة صغيرة حتى استقرت أمام سيده وانصرف .

نظرت إلى تلك العربة بدافع الفضول فوجدت عليها نصف رغيف من النوع البلدى وقطعة مثلثة من الجبن المطبوخ وكوب ماء وعدة علب دواء ، وعلى الفور أمسك الرجل بعلبة منها قبل أن يتذوق طعامه وابتلع قرصا بمصاحبة القليل من الماء ، اختلست النظر إليه وهو يقضم لقيمات وانصرفت بناظرى عنه عندما اتجه إلى وبصوت مكلوم تملأه اللوعة قال :

- هو ده الطعام المسموح لى به .

وأخذ يقص على قصة مرضه بالتفصيل الممل ، ذاكرا أنه لا يستطيع تذوق اللحوم سواء اللحوم الحمراء أو لحم الطيور وكذلك الأسماك والمسبكات والمشهيات وكل أنواع الحلوى ، وإلا عرض نفسه لخطر الموت ، وأنه يتمنى لو زالت عنه كل ثروته مقابل استرداد صحته ومقدرته على تناول ما تشتهيه نفسه من الأطعمة الشعبية التى يتناولها سائر خلق الله البسطاء .

رسمت تكشيرة على ثغرى وأومأت برأسى تعاطفا معه متمنيا أن يستجيب الله لأمانيه ، أو لعل ذلك رثاء لما آل إليه حاله ، وسمعت أصواتا تنبعث من أحشائى تذكرنى بخلوها فانصرفت عنه وأقبلت على الطعام فى نهم شديد واكتفيت باختلاس بعض النظرات إليه بين الحين والحين وقد عاد إلى دوائه وتناول ملعقة ثم أكمل ما تبقى أمامه من طعام واختتم وجبته بابتلاع عدة أقراص أخرى فى امتعاض

سقطت من عينى دمعة كبيرة رغم أنفى وأنا أرى ذلك الوجيه الذى يمتلك الدنيا بزخارفها ورونقها ولكنه لا يستطيع الاستمتاع بها فكم كنت أتمنى أن أنعم ولو بقسط ضئيل من حياة الترف التى ينعم بها ولكنى الآن أسرعت وتراجعت وحمدت الله على ما أنا فيه وهمست فى نفسى :

- ارضى بما قسمه الله لك تكن أغنى الأغنياء .

حملت حقيبتى عائدا أدراجى إلى قريتى متأملا بدنى المعاف من السقم غاضا البصر عما فى يد ذلك الرجل الثرى دون القدرة على الإستمتاع به .